ANCORA IMPARO

# العصور

فبراير ١٩٣٠ اعرف نفسك بنفسك ـ فيثاغورس مجلد ٦ العدد ٣٠

## من بقاء الاصلح

### الى بقاء الاطلح

From the Survival of the Fittest,
To the survival of the unfit.

فى سنة ١٨٧٨ نشر اسبانى من رجال المستعمرات المشتغلين بالعلم هو دكتور شيلى مارانجو مؤلفا عن جزر الكناري. غير أن الدكتور شيل لسوء حظه قد ضمن مقدمة الكتاب استعراضا خص فيه نظرية النشوء، وذكر بعض البراهين التى عثر بها فى جزيرة كناري عما كانه فى الأزمان القديمة من بربرية الانسان البدائى. ولقد فزعت السلطات الكنيسية، وعلى رأسهم الأسقف « بيدوت » من الاستكشاف الجديد، معلناً فى حماسه أنه « خطأ فاضح بعيد عن التقوى ». ولقد صدرت الأوامر الى كل الذين كانوا يحوزون نسخا من الكتاب أن يسلموا كل النسخ التي لديهم للسلطات الكنسية كما طرد المؤلف من حظيرة الكنيسة

على هذه الصورة كانت العقلية الكنسية فى أوروبا فى أواخر القرن التاسع عشر الذى قيل بأنه عصر العلم، كما كان القرن الثامن عشر عصر التأمل. عصر حظر فيه على

عالم من العلماء أن يقول كلمة يظهر بها رأيه فى مذهب علمى بعد أن نشر مذهب النشوء فى أوروبا بنيف وربع قرن من الزمان على القواعد التى وضعها داروين ، وبعد أن اثبت مارش فى أمريكا صدقه فى الحفريات وفون بابر فى ألمانيا صدقه فى الأمبر يولوجيا ، والاستاذ هكسلى فى انجلترا صدقه فى التشريح .

غير أن الصور العدائية التى ظهر بها اللاهوت فى أواخر القرن الفارط يمكن أن تعتبر آخر درجات الحمى التى أنتابت أهل الأديان ازاء العلم . والدليل على صحة هذا القول أن جامعة واشنطون - وكانت حديثة التكون فى أواخر القرن التاسع عشر - قد أعلنت من ناحيتها أقوالا تؤيد نظرية النشوء الجديدة كما أن جامعات كثيرة فى العالمين القديم والحديث ، قد تقبلت نظرية النشوء بالانتخاب الطبيعى ، واكب رجالها على المذهب يدرسونه بما يستحق من العناية والتقدير . وفضلا عن هذا فان من الظاهر الجلى أن رجال الكنيسة العظام لم يقفوا فقط سير المعركة التى دارت ضد العلم بل عملوا فى أمانة و اخلاص لكى يضعوا قواعد جديدة للتوفيق بين الناحيتين .

ومهما يكن من أمر العوامل التى يمكن اضافتها الى الانتخاب الطبيعى - ولقد سلم داروين نفسه بأنه من الممكن أن تكون هنالك عوامل أخرى تؤثر فى نشوء الانواع - فان نظريته فى النشوء الكونى ونشوء الصور الحية قد وضعت و ثبتت قواعدها ، كما أن نظرية الخلق المستقل القديمة قد اضمحلت و فنت من عالم الفكر الانسانى . ولقد تبدل الانسان منها بما أوحى العلم الحديث من تصورات ثابتة أبعد مدى و أنبل قصداً ، فتحت الباب لتكوين فكرة فى « القصد والغاية » اجمل من كل الفكرات التى كونها التصور اللاهوتى على مدى الازمان (١)

* * *

هذه الصفحات القصيرة تعرفك شيئاً عن تاريخ الصراع بين اللاهوت والعلم أزاء مذهب النشوء ، وتعرفك فوق ذلك أن المعركة كانت حامية الوطيس شديدة المراس . وليس من قصدنا أن نمضى هنا فى سرد الاسباب التى سببت هذا الصراع

---

(١) راجع كتاب بين الدين والعلم الذى ظهر حديثا عن دار العصور ص ٣١١ و ٣١٢

والحالات التي قامت فى ذلك العصر الذى تحددت فيه نظرية النشوء على الصورة التى صبها فيها العلامة داروين ، بل مهدنا بذلك للكلام فى مشكل اجتماعى ظهرت بوادره فى المدنيات المتتالية . وكانت آثاره السواى . تزداد سوءا كلما خطت المدنيات إلى الأمام خطوة بعد أخرى ، فكانت ظواهر هذا المشكل الاجتماعى في المدنيات البدائية أقل ظهوراً منها فى المدنيات المتوسطة كمدنية المصريين والكلدان ، ثم زاد خطرها فى مدنية اليونان والرومان والعرب ، وهى فى مدنيتنا الحديثة أبين صورة وأنفذ أثراً منها فى كل المدنيات الأخرى . ذلك المشكل الاجتماعى ينحصر فى أن الانسانية قد قلبت الآية من قانون طبيعي هو بقاء الأصلح ، فظهرت فى بعض نواحى المجتمع عاملة جادة لأحياء سنة تخالف هذه السنة الطبيعية ، وبهذا أصبح الطابع الجديد فى المجتمع انتقال من الخضوع إلى سنة بقاء الأصلح ، إلى الاستمتاع بثمرات حالات متراوحة غير مستقرة ، تعمل أبداً على بقاء الأطلح من أفراد المجتمع وطبقاته .

إن أول ما يستلفت نظر الباحث فى تاريخ التطورات التى انتابت المذهب الدراوينى الحديث الذى يتلخص فى النشوء بالانتخاب الطبيعى ، أن هذا المذهب لم يكد ينفض عنه غبار الطفولة فى أواخر القرن الفارط ويستقر على أساس طبق فيه على عالم الحياة المادية ، حتى أخذ العلماء يطبقونه على عالم الاجتماع . لهذا يجب علينا أن نوجز شرح النواحي التى طبق فيها المذهب على الاجتماع الانسانى ليكون هذا الشرح أساساً لما سوف نستنتج من هذا البحث .

* * *

نشر العلامة « سبنسر » الفيلسوف المعروف ، قبل أن يظهر كتاب أصل الانواع بتسع سنوات ، فى فصول اختتم بها كتابه « التعادل الاجتماعى » فكرة فى تعليل الجماعات الانسانية على قاعدة أن تكوين الجماعات انما يرجع إلى طبيعة بشرية تنزع بالانسان إلى المكافأة بين طبائعه وحالات الحياة المحيطة به . وكانت هذه الفصول النواة التى كبرت فيما بعد فصارت الأجزاء الضخام التى أخرجها سبنسر فى صورة فلسفة انسيكلوبيذية فى النشوء سماها الفلسفة التركيبية . وبعد ذلك بخمس سنوات ،

وقبل ظهور كتاب أصل الأنواع بأربع سنوات ، تناول سبنسر فى الطبعة الاولى من كتابه «مبادىء علم السيكولوجيا» تعليل الحياة مادية ونفسية ، وعزاها إلى أنها عبارة عن تقابل بين الصلات الداخلية فى الاحياء ، وبين الصلات الخارجية للاشياء المحيطة بها . وفى سنة ١٨٥٧ - أى قبل ظهور داروين بكتابه الخالد بسنتين - نشر سبنسر فى مجلة « وستمنستر » مقاله الكبير المعروف « الارتقاء : سننه وأسبابه » الذى عبر فيه عن مذهب جزئى فى النشوء ، معلناً أن النشوء هو النظام الكلى الذى يخضع له الكون وكل ما فيه من صور الحياة والجماد

إذن فقد عرف سبنسر أن النشوء يتلخص فى أمرين : مكافآت و تغايرات . ولقد تبع هذه الابحاث نشر كتاب أصل الانواع الذى تناول نشوء الصور الحية بالانتخاب الطبيعى . غير أن المعركة لم يحم وطيسها إلا سنة ١٨٧١ عندما نشر داروين كتابه « أصل الانسان » ذلك لان مذهب الارتقاء الانسانى أخذ يفهم فى الدوائر العلمية على أساس من التصورات الثابتة المقرونة بالاستقراء الواقعى من المشاهدات الطبيعية . ولقد أدرك الفيلسوف سبنسر مقدار ما فى سنة الانتخاب الطبيعى من أثر فى المجتمع الانسانى ، كما أدرك داروين أن تطبيق المذهب على الجمعية البشرية يحتاج إلى تفسير كيف أن التناحر على الحياة بين الجماعات - على ما فيه من صور القسوة والشدة - ينتج فى النهاية ثمراً من الآداب العليا ، غير أنه لم يتم لا لسبنسر ولا لداروين أن يكون أحدهما أول غائص وراء الدرة المستقرة فى أعماق بحر النشوء المتلاطم الامواج بصور النظريات المتكاثرة ، وبقي استكشاف التصور العلمى من حظ العلامة الكبير وولتر بيجهوت محرر مجلة الايكونومست اللندنية ، اذ كشف عنها فى كتابه المعروف باسم « الطبيعيات والسياسة : أوفكرات فى تطبيق مبادىء الانتخاب الطبيعى والوراثة على الجمعيات السياسية » ، وكان الكتاب عبارة عن مقالات نشرت تباعاً فى مجلة « الفورتنيتلى » بداءة من شهر نوفمبر سنة ١٨٦٧ . ولما جمعت هذه المقالات فى صورة كتاب خرجت فى قطع من الحروف الكبيرة فلم تزد صفحاته على ٢٢٣ صفحة . غير أنك لن تقع فى الابحاث التى دارت حول هذا الموضوع على بحثاً كثر ابتكاراً أو قوة فكر اوسلاسة تعبير أو استعماناً فى ادراك السببية الاجتماعية

أى علاقة الاسباب بالمسببات فى الاجتماع - مما تقع عليه فى هذه الصفحات القليلة منذ أن نشرت حتى اليوم .

فى كتاب « التعادل الاجتماعى » أظهر سبنسر أن الانسان البدائى لما اضطر الى الاحتفاظ بحياته بان يستقوى على الانواع الاحط منه مرتبة فى عالم الاحياء ؛ نزع الى القتل والقسوة ، بأنهما غير عابىء ولا مفكر فى شىء . غير أن أعقابه ؛ بعد أن تم لها الانتصار على غيرها من الانواع الدنيا . وورثت عن أوائلها عالما خاضعا لارادتها ولم تجد من حاجه تدعوها الى القتل والتفظيع ، من الجائز أن تكون قد عمدت الى التعاون المنتج فى ميدان العمل السلمى ، بعد أن فرخت فى أعماق نفوسها أصول العطف النوعى . وعند هذا الحد وقف العلامة سبنسر فلم يستطع أن يدرك أو يصور بالاستقراء حقيقة العلاقة الواقعة بين هذا النظام وتكوين الجماعات ، أو بينه ، بين الجهد الضمامى الذى يبذله مجموع متعاون بعد أن يتكون فى وحدة اجتماعية .

ولقد كانت حقيقة التناحر الضمامى - Collective Conflict لدى قياسه بالتناحر الفردى على البقاء ، هى الحقيقة التي وقع للعلامة « بيجهوت » ان يمتحنها ويدرسها فلم يلبث أن نفذ ببصيرته الى نواة الموضوع — قال :

( إن ارتقاء الفرد يتطلب تعاون المجموع لينمو ويثمر . أما المبدأ الاول فى هذا النظام فهو أن الانسان لا يستطيع أن يرتقى الا فى مجموع متعاون ، وقد يصح أن أقول قبائلا وأمما ؛ غير أنى استعمل اللفظة الاقل شيوعا ، لان الناس قد يرون أول وهلة أن القبائل والامم هى فى الواقع مجموع متعاون ، وأن تعاونهم هذا هو السبب فيما لهم من قيمة وجدارة فى الحياة ، وانه مالم تحدث فى جمعية من الجمعيات رابطة تعاونية قوية ، فان هذه الجمعية لا تلبث أن تغزوها وتفنيها جمعية أخرى اكتسبت رابطة التعاون . أما المبدأ الثانى فان أفراد مثل هذا المجموع يجب أن يكون بينهم قدر من المماثلة بعضهم لبعض يكفى لان يحفزهم الى التعاون الايجابى السريع . على ان التعاون فى كل الحالات المشابهة لهذه انما يرجع الى « شعور بالوحدة » قلبا وروحا . وهذا الشعور بالوحدة لا يمكن استيعابه ، الا بعد أن تحدث درجة من المماثلة الصحيحة فى العقلية والمشاعر بصرف النظر عن الاسباب التى تحدث هذه المماثلة .

ولقد أراد مستر « بيجهوت » بعد ذلك أن يعلل كيف تستحدث المماثلة فى العقل

والشعور فى الجماعات فاجاب على ذلك بانها انما تستحدث من طريق استعباد لم تر له مثيلا فى كل تجاربها الاجتماعيـــة ، الا وهو استعباد « قانون العادة » — Customery Law — ومن أجل أن يعالل حدوث العادات الاجتماعية ومقدار قوتها وأثرها فى الاجتماع ، وضع نظرية ضمنها خصائص المحاكاة أو التقليد . فان العادة من شأنها أن تحدث مماثلة ما بين الوحدات الاجتماعية ، وتفرض عليها حياة غير متغايرة ولا متحولة بحيث تصبح هذه الحالة عقبة كبيرة فى سبيل الارتقاء والتغاير من حال الى حال . لهذا يقول « بيجهوت » ان ادخال عناصر التغاير وخلق نزعة الى الارتقاء فى جماعة تحكمت فيها التقاليد ، أحد الاشياء التى تفيد الجماعات فى مناحراتها العديدة وعلى هذا يسير التطور الاجتماعى فى ظل معارك تقوم بين النزعات المتنافرة ، قسم منها فى جانب الاستمرار والبقاء على التقاليد ، والقسم الآخر فى جانب التغاير وتحقيق الاستقلال الفردى ، وقد تتسود فى فريق من الجماعات احدى هاتين النزعتين . فاذا تساوتا من حيث القوة فى جماعة من الجماعات التى تتناحر وجماعات أخرى ، فان الابقى فى التناحر على البقاء هى الجماعات التى تكون فيها النزعتان وتتساويان بحيث يصبح اتزانهما سبيلا تربح به الجماعة صفات الغلبه الضمامية . ولا جرم أن مستر « بيجهوت » قد وضع بشواهده هذه نظرية ثابتة من النظريات المعتمد عليها فى علم الاجتماع الحديث

ولقد عقب « داروين » على « بيجهوت » فى كتابه « أصل الانسان » . ففى الفصول التى بحث فيها العادات الاجتماعية والكفايات الادبية فى الجماعات ، انتحل النتائج التى وصل اليها بيجهوت ، ثم زاد اليها أشياء تعتبر أساسية فى هذا البحث ، فقال بان أربعة حالات اجتماعية تمكن للجماعات من سبيلها أن تفوز بالتفوق الاجتماعى خلال الصراع الذى يقوم بين الطوائف الانسانية . وهذه الحالات الاربع هى :

أولا — الاتحاد الجمعى أو القبيلى كسبب للتفوق فى التناحر بين الجماعات

ثانياً — العطف المتبادل كمؤثر فى إيجاد الاتحاد الجمعى .

ثالثاً — أهمية الوفاء المتبادل والشجاعة الغيرية .

رابعاً — الدور الاكبر الذى تلعبه ظاهرة الميل إلى المديح والزهد فى الذم فى خلق صفات الشجاعة الغيرية والوفاء المتبادل .

الفرد روسل ولاس

وفى هذه الاشياء الاربعة وجد داروين جواباً لسؤاله : كيف ، مع قيام الحالات التي يجب أن تقترن بالتناحر على البقاء ، يمكن للصفات الاجتماعية والادبية أن تجد فسحة تنفذ منها تدرجاً إلى حيث ترتقى وتتطور وأن تنتشر بين الناس فى أنحاء الدنيا المعمورة .

لقد أظهر الكونت « كروبوتكين » الروسى بكتابه « التعاون المتبادل بين الحيوان كمؤثر نشوئى » أن كلا من مستر « بيجهوت » والعلامة « داروين » قد ترك فى ميدان البحث فى المشاعر الاجتماعية والتعاون المتبادل ثغرات سدها هو بكتابه هذا ، وكان قد نشره فى مقالات ظهرت على صفحات مجلة القرن التاسع عشر . ولقد طبق كروبوتكين بعد ذلك نظريته فى التعاون المتبادل بين الحيوانات ، على جماعات البرابرة والمتوحشين فى أنحاء العالم . على أن هذه المقالات لم تبشر للناس بنظرية جديدة ولا هى وافتهم بعلم جديد فى سبيل مستحدث من سبل النشوء . ولكن كاتبها قد استجمع خلالها كثيراً من الشواهد والبراهين المؤيدة لحقيقة أن الدور الذى لعبته صفات العطف والتعاون فى التناحر على البقاء كان عظيما هائلا . كما أظهرت الى أى حد من الخطأ يذهب الذين يفسرون الانتخاب الطبيعي بأنه عبارة عن تغلب الأقوى والأقسى والأحيل .

ooo

إذا اعتبرنا هذه الحقائق وتأملنا منها ملياً ، وعرفنا أن تفوق الجماعات راجع الى « مماثلة » تكون بين العقليات والمشاعر فى الافراد التى تكون هذه الجماعة ، ثم تبصرنا فيما انتجت المدنية الصناعية من نزعات فى مختلف نواحى الحياة الضمامية ، فاننا لانلبث أن نحكم بان المدنية سائرة اليوم نحو تقييد قانون بقاء الاصلح باوضاع تؤدى حتما الى بقاء الاطلح من قلول الجماعات العظمى ، كما يسميها « جراهام والاس » فى كتابه — The Great Society

ولاجرم أن تقسيم طوائف الجماعة الى فئات تتخذ كل منها صفة من الصفات التى تؤدى الى السقوط فى معركة التناحر على البقاء الاجتماعى والانهزام فى معمعة الاستقلال الذاتى سببا الى تفوقها ، ضرورى فى مثل هذا البحث . بهذا نقسم الطوائف التى تحاول البقاء من طريق مضاد لما تتطلب حياة الجماعة لتكون جماعة غالبة فى الحياة الى ثلاثة أقسام :

الاول — الذين يتطلعون الى النشوء من ناحية القوة

الثانى — الذين يحاولون التغلب من ناحية القسوة

الثالث — الذين يطلبون الحياة الوادعة من ناحية الحيلة

وانت ان تطلعت فى نواحى المجتمع الحاف بك اليوم لاترى إلا أحد هؤلاء يرميك إما بقوة يخضعك بها ، واما بقسوة يسلبك بها ، وأما بحيلة ينتزع بها منك اسلحتك الاجتماعية .

ولقد كانت جماعات المدنية الحديثة أشد شعورا بحاجتها الى صفات التعاون الاجتماعى خلال سنى الحرب منها فى هذا العصر الذى علت فيه صيحة السلام وقامت عصبة الامم شبحا تتطلع اليه الامم ليدفع عنها غائلة الحروب . وكلما ازداد الناس اطمئنانا للسلام ازدادوا لزوما لعادات سوف تزيد فى انفسهم حب الغلبة فى احدى هذه الطرق الثلاث ، فاذا تذكرنا أن هذه الطرق الثلاث هى الدعامات الاولية فى التطفل الاجتماعى استطعنا أن نحكم بان مدنية العصر الحاضر تختص بصفة جلية بينة هى صفة القضاء على الاصلح فى سبيل الاحتفاظ بالاطاح من افراد المجتمع .

اسماعيل مظهر

---

# ياحياة

ألم أنت ياحياة مباد أو مداج ينسل فى الآمال
وبياض النهار فيك على الرغم من الشمس فى سواد الليالى
أنت شوهاء غير أن الامانى طالما غررت بمرأى جمال
فاذا أنت فتنة النفس تصبين اليك على هدى وضلال
والأمانى لوعة النفس حالت قبسا فى ظلام ليل الخيال
فتخال النفوس حتى اذا أو قظ منها أعيت على الاغلال
والمقادير تلعب اللعب الأخرق بين أسراك بالاهوال
والتداعى بالصبر ملتجأ اليأ س أثبتا أم لم شب بامتثال

عبد اللطيف ثابت